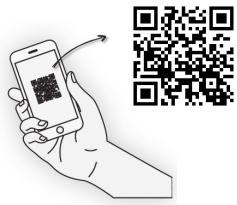

ظل الثريا..

طباء عبد السلام

هذه أنا..

من أنتِ..؟

عن ذلك السؤال المتكرر..تُرَتلُ تلك الأُنثى وصدى شذاها خاطرةٌ مُحلقة في العقول والأذهان.. وكأنها طائر نورسٍ أبيض.. يطفو على الماءِ ولا يغرق..

وكأنها نجمةٌ عند الهزيع الأخيرِ تُلقي التحية من سماءها وتبرق..بددت بفيض قبسها حُلكة ليلٍ غامقٍ مُعَتَّق..

فتلك المبحوثُ عنها هنا وهناك..تصنعُ من اللاشيء كل شيء..تلك الضَّفيرةُ المجدولةُ المُتأرجحةُ على خَمائل الحياة..تصدح في المدى وحكاياتها نسيم الصباحات.. ونَبضُ الضحكات.. ومساءاتُ التحايا.. وعبقُ بوحِ الوردات..

هي الفيحاءُ تُروِّض البُكاء وتُقدم ملح الأيام للغرباء.. فإن سألوكَ عنها فأخبرهم..فقد اكتملت بها دورةُ الحياة وطَردت بتدفقِ حنانها ما توالى من خَيبات..وتسللت بالسَّكينةِ والأُلفة إلى غياهبِ الروح..فكانت كغيثٍ انتظرته الغبراء فأينعت..بِلطيف ما جادت به السماء من قطرات..

هي إذن تلك الأنثى.. التي تحمل معها الخيرات..هي أنس من فَرَّ من صقيع الوحدة إلى دفئ الثرثرات.. فتُجيبه حينها بأعذبِ الأصوات.. وقوافيها تُثمل حروفَ القصائِد والأبيات.. فتُنشد وتهدهد بما كُرمت به منِ صفات..وتقولِ بِفَخيم العبارات..

انَا الطفلةُ والزوجةُ والأمُ و أنَا.. امرأةٌ وسيدةٌ أبدًا ليست على هامشِ الحياة..

طباء عبد السلام

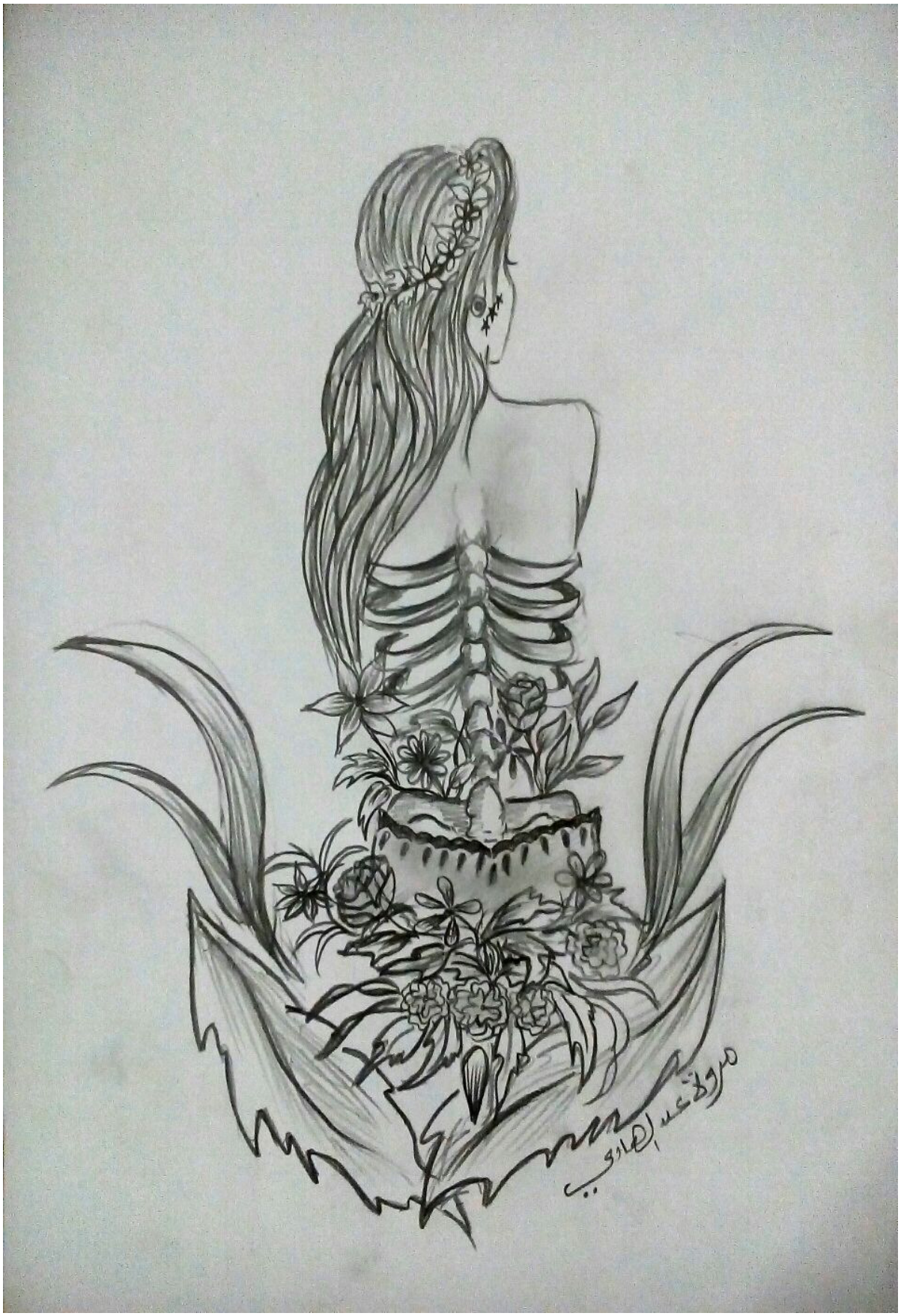

ظل الثريا

"ليس كل وميض متلألئ هو لنجم.."

حديثي مع النجوم وأنا أتسامر متأملًا سحرها في دياجيرِ..لا يزال تأثيره على نبضات قلبي.. التي انطلقت كسمفونية رائعة وهي تستقبل بهجة الربيع..أو كهمسات رقيقة لشعر غزلي قديم..

لست أعلم ما هذا السحر..ولست أعلم ما هذه الجاذبية التي تجعلني أدور في فلكِكِ دون توقف وأَملي.. بل..وكل أَملي أن يلمحني طرفك المتلألئ..فيُدركني وينتزعني من بحر السهد هذا..

حسنًا أيتها الثريا..أنيري لي الطريق..

فمنذ رأيتكِ ذات مرة.. وأنتِ تنزلين من برجكِ العالي وتتعطفين على فلاة قلبي العطشى.. بندى صوتكِ الرقيق حتى ازداد بريقكِ في سمائي وازدادت لوعة الصبابة في أحشائي.. لم أكن أظن أنني سأهتدي بكِ إليكِ.. فقد تعثَّرت حروفي.. لتتحول بعدها إلى دقات مُتسارعة تتحدى الزمن وتُجبره على التوقف عند وميضكِ.. وكأن لا شيء في الوجود غيركِ..وكأن كل الأجرام.. والكواكب تختفي ليطلع ويظهر فقط لمعانكِ البهي..

إن قلبي يا سيدتي منذ تنازلتِ ورمقتني بنظرتكِ الناعسة تلك وهو يرتجف.. أنتِ يومها لم تُدركي أن تحيتكِ العفوية تلك.. كبَّلتني إلى الأبد..

أعلم.. أنها كانت مجرد تحية عابرة.. منكِ..

أما أنا فقد كانت بالنسبة لي حياة نقلتني وحملتني من عتمة الوله المخفي بين أضلعي إلى نورِ قربكِ..يومها علمت أنني لم أعد أملك نفسي...وأني صرت أسيركِ بكامل إرادتي..وأنكِ أَبديتي..التي أريد..

"إنه يقف هناك...مجنونكِ.."

أخبرتها صديقتها جود.. وهي تُعلمها بأمر تعوَّدت عليه منذ زمن..

"أعلم..فلينتظر قليلًا.."قالتها بطريقتها اللامبالية..

"ما أقساكِ يا ثريا.. لو كنت مكانكِ لَمَا عاملته بهذا الشكل..!"

ابتسمت، وبتهكم قالت

"وكيف كنتِ ستعاملينه..؟"

ردت جود:

"تطلَّعي إلى عينيه فقط واستمعي إليهما..وساعتها ستعلمين...كيف تُعاملينه.."

ضحكت قليلًا وقالت:

"طيب..لم أكن أعلم أن للعينين حديث يُسمع..ومع ذلك فإنني أقول لكِ أيتها الحالمة..وحتى دون النظر إليه فإنني أعلم مُسبقًا ما يمكنه أن يقول.."

"إذن فارحميه..فهو لا يستحق منكِ هذه المعاملة..أنتِ تعلمين أنكِ محظوظة جدًا به...فمعظم الفتيات يحسدنكِ على فارس الأحلام هذا..!!"

أجابت ثريا رافعة ذقنها قليلًا وهي تحدق إليها بنرجسية وقد اعترت ملامحها نظرة الزهو والغرور تلك..

"أنا لست كباقي الفتيات..!! فأنا ثريا!!ثم..أنتِ تعلمين أنني لا أؤمن بالأحلام..!! لأنني أنا هي منتهى أحلام الفرسان..! ثم أشارت إليها بيدها مودعة إياها واستدارت لتنزل من أعلى الدرج وهي تُدرك تمامًا أن العديد من الرؤوس سوف تستدير لتتبع خطواتها الرشيقة وإطلالتها الأنيقة وشعرها الأشقر المُنسدل، وتقاسيم وجهها الفاتنة، فحضورها المُتميز لا يُمكن أبدًا للأنظار أن لا تلحظه ومن ثم أن تسعى لملاحقته كالظل.

إنها الثريا..!نجمة متلألأة في فضاء كلية الصيدلة..بل في حيز وافق كل مكان تتواجد فيه..

كان شادي لا يزال مُنتظرًا إياها وبابتسامته المعتادة وهدوئه الجميل رحب بها قائلًا:

"مساء الخير.. "

أجابت: "مساء النور "

"كيف حالكِ؟ وكيف كان اختباركِ الأخير؟..أتمنى أن تكوني قد حللتِ بشكل جيد.."

"نعم. أكيد.. لقد وُفقت تمامًا..شكرًا لك "

"حسنًا.. هذا رائع..."

ثم نظر حوله وبلمحة خاطفة منه تبين له أن معظم الواقفين أمام باب الجامعة كانوا يتطفلون عليهما ويتابعون حديثهما البسيط..

فقال بصوت خفيض لا يكاد يُسمع:

"هيا فلنغير المكان..لنذهب إلى الكافتيريا أو إلى أي مكان تُحبينه.."

أومأت برأسها إيجابًا وغادرا معًا..

جلسا معًا على تلك الطاولة التي اعتادا عليها، فشردت هي قليلًا في روعة وجمال حوض الأسماك الكبير الذي يتزين به ذلك

المقهى الأنيق، والذي كانت تأتي إليه في معظم الأحيان برفقته حينما يُلح هو على رؤيتها، كان لذلك المكان سحر عجيب.. يجعل كل رواده في مزاج جيد..فكثرة تلك الأحواض الملونة التي تملأه تجعلك تحس بأنك في رحلة مدهشة بأعماق البحار، وكأنك في غواصة الكابتن نيمو وهو يستكشف العالم الأزرق بكل مخلوقاته من أصغرها إلى أكبرها، فكانت تتراقص من وراء الزجاج الشفاف، تلك الأسماك الملونة بألوان الطيف..

وكان هناك ذلك الأخبوط الخجول والذي يسبح ببطء بين تلك الأعشاب الخضراء ونجمة بحر تُثير الفضول بلونها الزهري الغامق وتنثر بعضًا من سحرها..أما في حوض مستقل فكان هناك قرش صغير يتجول بخفة وبحركات مُنسابة ذهابًا وإيابًا..يكفي أن تتأمل تلك المخلوقات حتى تحس بالاسترخاء وبأنك تنتمي إلى عالمها الجميل، عالم البحار..عالم الهدوء والمغامرة والشجاعة..

غير أن ليس كل بحَّار هو شُجاع، وثريا في بحر هذا اليوم تفتقد إلى تلك الشجاعة التي ستغوص بها في عالم المواجهة مع شادي، كانت تعلم مُسبقًا أنه سيُفاتحها من جديد في ارتباطهما وأنها رغم فرارها من مواجهته لمرات عديدة إلا أن الأمر أصبح محتومًا، وأنها مُجبرة للرد عليه!

أحضر النادل طلبهما فتصاعدت نكهة القهوة الكريمية التي تحبها ثريا، والتي أدمنت على شربها، فهي بلا شك تمنح أعصابها هدوءً واستقرارًا وقوة هي في أمس الحاجة إليها الآن، أما هو فقد اكتفى بعصير برتقال عساه ينتعش به ويروي قلبه الظمآن إلى إجابة شافية منها.

كان قد مضى على تعارفهما قرابة السنة والنصف، من بعد أن رآها لأول مرة مع أخته سما التي تدرس بدورها الصيدلة، ولكنه ومنذ ذلك الحين ومنذ أن وقعت عيناه عليها وهو يحس أن وقع نبضات قلبه قد تغيَّر، فلم يعد يدري أوقع منه فؤاده في ذلك اليوم، أم أنه ما يزال بين أضلعه تائهًا، أم أنه حلَّق إلى سماءها واستقر هناك.. هو اليوم يعي تمامًا أنه لم يعد كما كان من ذي قبل، فقد كان يعيش حياته بهدوء وروية قبل أن يتعرف عليها، فعلى الرغم من كونه شابًا إلا إنه لم يكن قد خَبر من قبل مثل هذا الإحساس الذي أصابه وباغته على حين غفلة منه وقلب توازن حياته المُنظمة والمنسجمة مع طبيعته الهادئة، فهو لم تكن لتغريه أية فتاة بسهولة..

فهو رومانسي حالم من الزمن الجميل باحث عن من يخفق لها قلبه أولًا وأخيرًا، ليجعلها بعد ذلك كوكبه الذي يحوم حوله،

لـم تكـن لـه مغـامرات كبـاقي أصـدقائه لأنـه كـان مؤمنًـا جـدًا بأنـه سيجد ضالته وأنه يومها سيُخلص إلى الأبد.. فالحب ليس لباس نغيره كل يوم حسب فصول السنة أو حسب أهوائنا ورغباتنا أو حسب ما يُخبره به أصدقائه المتنقلين بين قصص الغرام تنقُّل الفراشات بين الزهور، بل هو لباس يريد أن يرتديه ليواري به روحه إلى الأبد..ربما كان مثاليـًا حالمًا أكثر من اللازم على خلافها!

"ثريا.."نطق باسمها وكأنه يهمسه، فأشاحت بنظرها عن حوض الأسماك لتنظر إليه مباشرةً.

"نعم"

"أعلم أنكِ مُرهقة..بسبب الامتحانات..وأنكِ تحتاجين لبعض الوقت..ولكن.."

توقف قليلًا..ثم استطرد..

"أظن أن الوقت مناسب الآن...حتى نجعل علاقتنا رسمية..!

وقع صمت لبرهة بينهما..ثم تشجَّع وأضاف..

"أنتِ تعلمين أنني انتظرت لفترة طويلة ولم أشأ أبدًا أن أضغط عليكِ..مع أنني وكما تعلمين شخص جاهز ماديًا..ولا

ينقُصني شيء..لكنني أردت أن تأخذي قراركِ وأنتِ مقتنعة تمامًا..وأنتِ مُطمئنة به.."

كانت ثريا تنظر إليه وهي تعلم أن ما ستقوله لن ينال أبدًا رضاه، فهي رغم إعجابها بـ شخصيته المُتزنة، والكاريزما التي يتمتع بها إلا أنها كانت وما تزال غير مستعدة لهذا الارتباط، صحيح أنه فارس حقيقي في زمن قلَّ فيه الفرسان..وأنه يحبها بشغف لا يمكن أن يخفى على أحد.. لكنها لا تعلم كيف لها أن تشرح له ما تستَّر في وجدانها من أحاسيس..

نظرت إليه مرة أخرى بتمعن وحاولت أن تُقنع نفسها بأن تُجيبه إلى طلبه وأن تُسكت ما يُقام في رأسها من ضوضاء عجيبة.. فتحركت شفتاها لتنطق..لكن شيئًا آخر..شيء مختلف تمامًا عن ما كانت تُرغم نفسها على البوح به هو الذي طفا على شفتيها..

"أنا فعلًا أقدِّرك يا شادي..وممتنة لك لأنك منحتني كل هذا الوقت..ثم توقفت قليلًا وأردفت..لكن..أظن أنني لا أزال غير مستعدة للارتباط..!"

تغيَّرت ملامح وجهه ليكسوها شحوب باهت..وقبل أن تسترسل في كلامها قال:

"أنا لا أفهم ولا أعلم ما يجب أن أقوم به حتى تقبلي بي..!ثم..حدق بها مليًا وكأنه يخترقها..

"أتراه، شخصًا آخر..؟"

"كلا بالطبع لا..أنا لست كذلك..!"

قاطعته مدافعة عن نفسها..

"إذن ماذا..؟أنا حقًا لا أفهمكِ؟!.."

انظر.. كل ما أستطيع قوله هو أنني حاولت أن أُنجح علاقتنا وأن أتهيأ للارتباط بك..لكنني لم أستطع..! "

"ثريا أنا أحبكِ!!..ألا يكفيكِ ذلك..ألا تشعرين بما أنا فيه من توهان..وأنني حقًا عاشق ولهان..أم أنكِ حقًا لا تبالين بهذه الصبابة التي تشتعل بداخلي وتُحرقني..!لم يعد أحد يَخفى عليه ما أُكنه لكِ من وجد..حتى النجوم في عتمة أيامي بت أشكو لها ما فعلته الثريا بي..لكنكِ لا تزالين على حالكِ..تتلألئين في سماكِ غير آبهة لمكلوم مثلي..!

كان يقول هذا الكلام بانفعال حزين، وكانت هي تنظر إليه بتأثر بالغ، حدثتها نفسها لوهلة..

ارحميه..إنه يحبكِ حقًا وبجنون..لكن صوتًا آخر صرخ في أعماقها..وماذا عني..أنا..!!

نعم أنا! فأنا لا أحس اتجاهه بأي شيء..!

لطالما حاولت أن أحبه لكنني لم أوفَّق.. كنت لا أريد أن أجرح مشاعره..لكن على ما يبدو أنه آن الآوان أن أصارحه: "شادي ليتني أستطيع أن أكون لك مثل تلك الثريا التي تتحدث عنها..!

ليتني أستطيع أن أبادلكِ نفس أحاسيسك الرائعة تلك.. لكنني..توقفت وبصوت متهدج قالت:لا أستطيع..!

ولِمَ..؟ قالها بحزن

"لا أعلم..ثم حاولت الشرح..ما تُخبرني به أنت عن خفقات قلبك..ووجد وولع..أنا لم أحس به يومًا..أنا لا أعلم ما هو هذا الحب الذي تتحدث عنه..أو يتحدث عنه الآخرون كصديقتي جود مثلًا..أنا قلبي لا يخفق وأنفاسي لا تتسارع..

ولا أفهم معنى السهد الذي ينتاب المُحبين..وكلما حاولت أن أفهمه فإني لا أتوصل أبدًا إلى ماهيته أو حقيقته..ربما أنا لست كغيري من الفتيات..ربما يوجد خلل بي من يدري..لكنني لا أستطيع أن أشاركك حياتك وأنا على هذا الحال..فانا لاأفهم كيف أحل خوارزمية الحب هذه..!"

ابتسم ابتسامة باهتة وقال..:

"هذه المشاعر عزيزتي لا تحتاج إلى حسابات رياضية..أو

تركيبة من تراكيب الصيادلة..!هذه المشاعر تنبت في القلب وتتغذى على حسن المعشر وجميل المعاملة..هذه المشاعر لا يتحكم فيها العقل ولا حتى القلب..هي تأتي هكذا بغتة وبدون إعلام أو إنذار منها..هو الحب يا ثريا لا يد لنا فيه.. ولا يمكننا سوى الإذعان إلى سلطته..والتسليم لقوته.."

ردت عليه:

"هو كما قلت..لا يد لنا فيه..وأنا لا يد لي إن كان قلبي لا يخفق لك..!"

أخفض عينيه فجأة وعمَّ بعض الصمت..ثم تنهد ورفع رأسه ونظر في اتجاه حوض الأسماك..وقال:

"ألا يوجد في قلبكِ ولو مساحة صغيرة..لي..؟ربما مع الوقت ستكبر..وتصبح حديقة غنَّاء..أعدكِ أن أجعلها حديقة..بل فردوسًا أعدكِ..!"

قالت:"أنا لا أُنكر أنني معجبة بشخصك وثقافتك..لكن هل هذا يكفي؟"

"نعم يكفيني أنا..!"

"آسفة..!أما أنا فلا..أنا أريد ان أحس بما تحس به

أنت..يقال أن الحب يأتي بعد الزواج..لكنني لن أغامر على شيء ربما لن يأتي أبدًا..!"

صمت هو ولم يعد يرى جدوى من مناقشتها الآن، ربما لاحقًا فهو لن يستسلم أبدًا سيلاحقها كظلها، بل كشهاب في سمائها العالية المنيعة حتى يقتحم أسوار قلبها العنيد.

لم يجادلها لأنه كان يفكر في وسيلة ضغط تُليِّن شخصيتها القوية، فعلى الرغم من كونها وحيدة أبويها وعلى الرغم من دلالها المفرط، إلا أنها كانت عنيدة لدرجة كبيرة..فلا أحد يستطيع أن يفرض عليها أمرًا ما لم تكن هي ترغب به..وهو لا يريد أن يستمر في ملاحقتها هنا وهناك..لذا فقد لجأ إلى والديها عساهما أن يكونا عونا له، فتُذعن في الأخير لطلبه شأنها كشأن كل الفتيات، لكن الأمر فشل بشدة بل هشَّم كل خيط أمل أخير لديه..

هي كما قالت أمها أثناء نوبة غضب انتابتها فألقت فيها بكل حقيقتها أمامها، فتاة مغرورة، تظن أن جمالها يُغنيها عن كل شيء، وأن لا أحد يصلح ليرتقي إلى مستواها.. فهي تحب أن تكون محور الكون، وأن يتغنى الناس بروعتها على الدوام دون أن تسمح أن يقترب أحد منها..أو أن تتنازل عن برجها العاجي..تبحث عن الغرام في أعينهم أكثر من أن تنتبه لعشق

أحدهم حتى وإن كان صادقًا.. فهي لسوء حظ شادي نرجسية تحب نفسها فقط!

ولعلها لم تكن نجمته أبدًا ولعلها لم تكن لتناسبه، لكنه انبهر بها وتعلق بها وبألقها، رغم أنه ليس كل وميض متلألئ هو لنجم..!

لم يكن هناك شيء لإضافته إلى تلك الحكاية، فالأيام وحدها كانت كفيلة بكل إضافة، وكلما مرَّ شريط الذكريات بومضاته على روحها تحس بانقباض شديد، ولعلها تحاول أن تُسلي عن نفسها فتُحدثها تلك الأنا المتضخمة والقابعة تحت عباءة الجسد، تُخبرها بأنه لا يزال يحبها رغم زواجه بأخرى، فأخباره تصل إليها دون أن تتقصى عنها، فهي تهب عليها كريح تدفع بـ غيمة مشحونة ماطرة بـ ثرثرات المُحيطين بها، ليشهد الجميع لها على أنه لا يزال ورغم معاملته الطيبة لزوجته والتي تعلم بأمرها..لا يزال يحبها! حدثتها نفسها المتعالية مرارًا، مُتعجبة من أمر غريمتها تلك، إذ كيف لامرأة أن تقبل بالعيش في ظل امرأة أخرى؟

تنبهت بعد مدة وهي تعمل في صيدليتها، إلى نظرتها الحزينة المرسومة على ملامحها والمتخفية وراء رموشها الطويلتين، بأنها

لـم تعـد تتعجـب مـن زوجـة شـادي، نعـم فهـي بـدورها تعـيش في الظل، فرغم أنه لا ينقصها شيء داخل لوحة الحياة الرغيدة التي قدمها لها زوجها أنور أستاذها المُشرف على رسالتها والذي تنازلت بعد إلحاح والديها أولًا ثم مأخودة بسحر شخصيته ثانيًا، تنازلت له عن بعض غرورها، إلا أن ذلك كله لم يمنع من ظهور ظل امرأة أخرى تسكن قلبه ولم تغادره قط، فكان ذلك يكسر كبرياءها، فهي بحاسة النساء القوية تلك والتي لا تُخطئ أبدًا، كان يتناهى إلى نفسها ومن خلال نظراته أنها لن تمتلك قلبه..فقد تزوجت برجل أرمل لم يستطع أن يتخطى فلك زوجته الراحلة والذي احتجزه بداخله للأبد.

فتعترف مرغمة أحيانًا لها تلك الأنا، بأنها أفسدت فرصتها حينما تخلَّت عن أن تكون ثريا متلألئة في قلب امتلأ حبا بها..بدل إدعانها لغرورها الذي جعلها ظلًا باهتًا في قلب زوج امتلأ قلبه بغيرها..

و أهو ده اللي صار!